

تفسير السعدي

@ 311 @ السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند
الذي لا يعلمون * قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت
أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) ^
يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : (يسألونك) ^ أي : المكذبون لك ،
المتعنتون) ^ (عن الساعة أيا نمرساها) ^ أي : متى وقتها ، الذي تجيء به ، ومتى تحل
بالخلق ؟) ^ (قل إنما علمها عند ربي) ^ أي : إنه تعالى المختص بعلمها ،) ^ (لا يجليها
لوقتها إلا هو) ^ أي : لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه ، إلا هو .) ^ (ثقلت في
السماوات والأرض) ^ أي : خفي علمها على أهل السماوات والأرض ، واشتد أمرها أيضا عليهم ،
فهم من الساعة مشفقون .) ^ (لا تأتيكم إلا بغتة) ^ أي : فجأة من حيث لا يشعرون ، لم
يستعدوا لها ، ولم يتهيأوا لها .) ^ (يسألونك كأنك حفي عنها) ^ أي : هم حريصون على
سؤالك عن الساعة ، كأنك مستحف عن السؤال عنها ، ولم يعلموا أنك لكمال علمك بربك ، وما
ينفع السؤال عنه غير مبال بالسؤال الخالي من المصلحة ، المتعذر علمه ، فإنه لا يعلمها
نبي مرسل ، ولا ملك مقرب . وهي من الأمور التي أخفاها عن الخلق ، لكمال حكمته ، وسعة
علمه .) ^ (قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ^ فلذلك حرصوا على ما
لا ينبغي الحرص عليه ، وخصوصا مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم ، ويدعون ما
يجب عليهم ، من العلم ، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه ، ولا هم مطالبون بعلمه .
^ (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا) ^ فإنني فقير مدبر ، لا يأتيني خير ، إلا من الله ، ولا
يدفع عني الشر ، إلا هو ، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى .) ^ (ولو كنت أعلم
الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) ^ أي : لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي
المصالح والمنافع ، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكروه ، لعلمي بالأشياء قبل كونها ،
وعلمي بما تفضي إليه . ولكنني لعدم علمي قد ينالني ما ينالني من السوء ، وقد يفوتني ما
يفوتني ، من مصالح الدنيا ومنافعها ، فهذا أول دليل على أنني لا علم لي بالغيب .) ^ (إن
أنا إلا نذير) ^ أنذر بالعقوبات الدينية والدنيوية ، والأخروية ، وأبين الأعمال المفضية
إلى ذلك ، وأحذر منها .) ^ (وبشير) ^ بالثواب العاجل ، ببيان الأعمال الموصلة إليه ،
والترغيب فيها ، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة ، وإنما ينتفع بذلك ،
ويقبله المؤمنون . وهذه الآيات الكريمات ، مبينة جهل من يقصد النبي صلى الله عليه وسلم
ويدعوه لحصول نفع ، أو دفع ضرر . فإنه ليس بيده شيء من الأمر ، ولا ينفع من لم ينفعه الله ،

ولا يدفع الضر ، عمن لم يدفعه الله عنه ، ولا له من العلم ، إلا ما علمه الله ، وإنما ينفع من قبل ما أرسل به ، من البشارة والندارة ، وعمل بذلك . فهذا نفعه عليه السلام ، الذي فاق نفع الآباء والأمهات ، والأخلاء والإخوان ، بما حث العباد على كل خير ، وحذرهم عن كل شر ، وفيه لهم ، غاية البيان والإيضاح . ^ (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهاما صالحا جعل له شركاء فيما آتاهاما فتعالى الله عما يشركون * أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون * ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون) ^ أي : ^ (هو الذي خلقكم) ^ أيها الرجال والنساء ، المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقكم . ^ (من نفس واحدة) ^ وهو : آدم أبو البشر صلى الله عليه وسلم . ^ (وجعل منها زوجها) ^ أي : خلق من آدم زوجته حواء ^ (ليسكن إليها) ^ لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ، ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر ، فانقاد كل منهما إلى صاحبه ، بزمam الشهوة . ^ (فلما تغشاها) ^ أي تجللها مجامعا لها قدر الباري أن يوجد من تلك الشهوة ، وذلك الجماع ، النسل ، وحينئذ ^ (حملت حملا خفيفا) ^ وذلك في ابتداء الحمل ، لا تحس به الأنثى ، ولا يثقلها . ^ (فلما) ^ استمرت و ^ (أثقلت) ^ به حين كبر في بطنها ، فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد ، وعلى خروجه حيا ، صحيحا ، سالما لا آفة فيه . لذلك ^ (دعوا الله ربهما لئن آتيتنا) ! 2 2 ! (صالحا) ^ أي : صالح